نموذج للتفاعل الفكرى لتحليل الصراع الثقافى
فى العلاقات الدولية (*)

تأليف : أ . جلين ، د . جونسون ، ب . كيمل ، ب . ودج .

عرض : دكتور محمد الجوهرى

التزمنا فى عرض هذا المقال ومناقشته خطة محددة . فقد اردنا به أن يغنى القارىء عن الرجوع الى المقال . ولما كنا سنختلف مع المؤلفين فى عديد من النقاط الأساسية ، كان من الانصاف للمؤلفين والأمانة فى عرض الموضوع الا نبخل فى عرض المفاهيم والتعريفات ، وأن نركز بعد ذلك على الخطوط العامة . والعبارات الكاملة المترجمة اقتباسا من المقال هى دائما افضل سبيل لتقريب فكر المؤلف الذى نعرض له من القارىء ، الى جانب انها تحافظ على وضوح الخط الفكرى الرئيسى .

ثم حرصنا بعد ذلك على ان نفصل بشكل واضح بين عرض المقال (التلخيص) وبين الجزء الذى ننقده فيه ونضعه على مائدة المناقشة . لذلك لم نضمن الجزء الأول اى احكام خاصة لنا على فكر المؤلفين ، وتركناهم يتحدثون دون قيود أو مراجعة .

مقدمة :

يعتبر وضع النماذج أحد الاساليب التى يستعيض بها العلم أو يستكمل بها تخمينات « الذوق السليم » عند تصديه لمعالجة مشكلات العالم الواقعى . وتستهدف هذه الدراسة تقديم نموذج يمكن الاستعانة به فى

(*) A Cognitive interaction model to analyse culture conflict in International Relations.

by : Edmund glenr, Robert johnson, Puol Kimmel and Byrant Wedge. The Journal of Conflict Resolution Vol. xiv, No 1, march 1970 PP. 35 – 48.

دراســـة الصراع الثقافى ، وتحديد انماط المواقف الدولية التى يمكن بفضل هـــذه الأداة المنهجية فهمها فهما أوضح وزيادة القدرة على التنبؤ بتطوراتها .

ولتوضيح فئة الظواهر التى يفيد هذا النموذج فى تحليلها ودراستها سنبدأ باستعراض نموذج مقابل ، هو ذلك الذى تقدمه لنا «نظرية اللعب» ولكننا نتبع هذه المقدمة القصيرة ببعض التعريفات الضرورية .

التعريفـــات :

يبدأ المقال بتعريف المفاهيم والأدوات الأساسية التى ستستخـــدم على طول الدراسة . فيبدأ بالتمييز بين النماذج والنظريات ، ثم كلمة عن النموذج الذى تقدمه نظرية اللعب .

النموذج والنظرية :

النموذج عبارةعنبناء فكرى نظرى يتميز بدرجة من التماثل والتجانس الشكلى ، موضـــوع خصيصا لاغراض البحث بحيث يمكن ان يوقدنا الى فهم افضل لبعض الخصائص المميزة لموضـــوع الدراسة الذى كان يمكن ان يظل غامضا غير مفهوم دون استخدام هـــذا النموذج . لذلك يمكن اعتبار النموذج فى هـــذه الحالة بمثابة اداة لتنفيذ مرحلة معينة من مراحـــل البحث العلمى . ويكون تحت يد الباحث مجموعة من النماذج ، يستخدم الواحد منها تلو الآخر ، على اعتبار ان كل برنامج رئيسى من برامج البحث قد يتطلب استخدام اكثر من واحد من تلك النماذج . ولذلك نلاحظ أن النموذج يختلف عن النظرية اختلافا جوهريا من حيث انه لا يدعى مثلها تقديم فهم كامل نسبيا لميدان بأكمله من ميادين الدراسة .

نموذج نظريـــة اللعب :

تستهدف نظرية اللعب القاء الضـــوء على المواقف التى تضم طرفين على الأقل ـــ يطلق على كل منها اسم « اللاعب » ـــ بينهما صراع فى **المصالح**. ويعمد احد هؤلاء اللاعبين على الاقل الى انتهاج اسلوب معين فى التصرف ـــ وهـــو ما يطلق عليه اسم « استراتيجية » ـــ من شأنه أن يؤدى الى زيادة مصالحة او مكاسبه الى أقصى حد ممكن تسمح به ظروف الموقف وقيوده . واهم تلك القيود التى يفرضها عليه الموقف ولاشك هى استراتيجيات اللاعبين

الآخرين الذين يشاركونه ذلك الموقف . والملاحظ عند تطبيق نظرية اللعب فى تحليل استراتيجيات اللاعبين الأفراد الذين يوجد بينهم صراع فى المصالح ، نلاحظ أن الفروض عادة أن يتوفر لدى اللاعبين المختلفين :

(أ) نفس الفهم الواحد لقواعد اللعبة التى يشتركون فيها .

(ب) نفس مدلول قيم المكسب والخسارة فى هذا الموقف .

وتوضح لنا هذه الفروض وغيرها أن نظرية اللعب لا يمكن أن تقدم لنا نظرية شاملة لتفسير الصراعات بصفة عامة والصراعات الدولية على وجه الخصوص . ذلك انه من المؤكد أن مختلف أطراف الصراعات الدولية لا يتفقون دائما وعلى طول لخط فى فهمهم لقواعد اللعبة ولمعنى قيم المكسب والخسارة . ويمكن أن نكون بمعنى آخر أن الصراعات ليست كلها بالضرورة صراعات فى المصالح أساسا . ولو أن هذا لا ينفى طبعا أن هناك بعض المواقف فى السياسة الدولية التى يتشابه فيها فهم طبيعة الموقف لدى صانعى القرارات ، كما يتشابه تقديرهم لما هو مرغوب ، وان هذا التشابه من الكفاية بحيث يسمح لنا باستخدام نموذج نظرية اللعب كأداة فعالة من أدوات البحث فى مثل تلك المواقف .

أنماط الصراع :

سوف يتضح من هذه الدراسة أن هناك كثيرا من المواقف الدولية التى لا يرجع فيها الصراع الى تعارض المصالح (مثل ندرة المواد) بقدر ما يرجع الى تباين طرق الفهم (مثل اختلاف الأساليب المعرفية) .

ويستطرد المؤلفون فى توضيح الفروق الأساسية بين صراع المصالح، وصراع الفهم من خلال استعراض موقفين افتراضيين يتميزان بالبساطة ، وبالقياس الى مواقف الصراع الدولى المعقدة عامة . وهو يختار لهذا الغرض حالة صراع زوجى أخذوها عن مقال :
Kimmel and Havens, Ljame theory versus mutual identification, two criteria for assessing marital relations, Journal of Marriage and the Family, 1966. (28).

فيعرض المؤلفون لحالة زوجين — مثلا توم وسالى — بينهما خلاف فى المصالح ، ثم يعرضان لهما فى موقف آخر يتجلى فيه خلاف بينهما فى الفهم ، وليس فى مصلحة كل منهما فى ذلك الموقف .

ويوضح المؤلفون ان حل الموقف الأول ــ صراع المصالح ــ يتسنى عن طريق تنازل كل من الأطراف المعنية عن جانب من مصالحه ، أو عن طريق تنازل أحد الطرفين عن مصالحه كلية لصالح الطرف الآخر ، وبذلك يتحقق السلام المنشود فى ذلك الموقف .

أما بالنسبة لحل الموقف الصراعى الثانى ــ صراع الفهم ، أو تعارض أسلوب كل طرف فى فهم موقف الطرف الآخر ــ فان السلام لا يتحقق الا من خلال تكون بعض الأفكار الوسيطة (أو التوسطية) ــ أى التى تتوسط بين الأطراف المختلفة التى يمكن أن تؤدى الى تقارب فهم كل منهما لموقف الآخر ، وبالتالى للموقف المشترك . فهذا الموقف الصراعى ــ الثانى ــ ناجم عن اختلاف الزوجين تسوم وسالى فى فهم طبيعة الزواج ، وفى تقدير الأدوار المشتركة للزوج والزوجة داخل العلاقة الزوجية .

فلنفترض أنه أمكن تسوية الخلاف الفكرى (أو « الايديولوجى ») بينهما . اى انهما توصلا مثلا الى انه من الأسلم للزوجين أن يكون لهما حساب واحد مشترك فى البنك ، وأن الاضطلاع بأعباء العمل المنزلى على الوجه السليم هو مسئولية الزوجة بالدرجة الأولى ، وأن عمل الزوجة يجب ان يحتل من حيث الأهمية المرتبة التالية على عمل الزوج اذا ما حدث تعارض بين أداء العملين على الوجه المناسب . فمثل هذه النتيجة تؤدى تلقائيا الى تسوية الصراع المشار اليه ، طالما أن العمل المنزلى يؤدى على الوجة السليم ، وأن دخل سالى من عملها يتفق على الحساب المشترك فى البنك ، وأن مسئولية الخدم من اختصاص الزوجة وحدها .

وهنا يصل كل من توم وسالى الى درجة من الرضا الكامل لأن تسوية هذا الصراع لم تكن نتيجة حل وسط ــ كالمشار اليه فى موقف صراع المصالح ــ وانما نتيجة اعادة تصور كل منهما للصواب والخطأ فى هذا الموقف .

الأفكار الوسيطة : Mediating strustures

اتضح أن العامل الذى تدخل لفض هذا الصراع الفكرى أو المعرفى ، ليس هو التحكيم ، وانما ما يسميه المؤلفون الأفكار الوسيطة . وقد كانت الفكرة الوسيطة فى الصراع المشار اليه هى **فكرة الزواج** ، التى يشترك فيها الزوجان مع اغلبية الناس الذين يختلطون بهم فى حياتهم اليومية .

ولقد كان اختلاف صورة الزواج لدى كل من توم وسالى عاملا فى قيام صراع معرفى أو فكرى بينهما ؛ أدى الى تيام صراع فى المصالح فى نهاية الأمر . ولما كان نظام الزواج فى ثقافة ما عبارة عن نسق معين من الأنكار والمفاهيم ، لذلك نجد أن تجربة الصراع الفكرى يمكن أن تقود الزوجين الى التماس الصورة النمطية أو المنوالية Modal للزواج فى المجتمع الذى يعيشان فيه . ومن شأن هذه الصورة المنوالية أو تقودهما الى اعادة ترتيب وتنظيم مفاهيم كل منهما بشكل جوهرى وحاسم فى تسوية الصراع . لذلك نقول ان تصور تلك الثقافة للزواج يمكن أن يلعب دورا Mediating وسيط فى تسوية الصراع ؛ ربما على نحو اكفأ من اى وسيط آخر فى هذا الموقف .

كذلك يمكن استخدام نموذج التفاعل الفكرى (أو المعرفى) فى تسوية الصراع الدولى تبعا لدى توفر تلك الأنساق الفكرية الوسيطة . ويمكن تعريفها بأنها : **أنساق من الأفكار ، تتكون بناء معرفيا جزئيا ، يشارك فيه أطراف الصراع فعلا أو يمكن تحقيق مشاركتهم فيه . ومن شأن هذه الانساق الوسيطة أن تؤثر على صورة كل من أطراف الصراع عن نفسه .**

ينتقل المؤلفون بعد ذلك الى تحديد ثلاثة أنماط لهذه الأنساق الفكرية الوسيطة فيما يتعلق بالنظام الدولى . نعرض لها فيما يلى :

أنماط الأنساق الفكرية الوسيطة

أولا : مفهوم الدولة ذات السيادة :

ويضم النمط الأول هذا المفهوم الأساسى وما يترتب عليه من أساليب التنظيم الدولى ، والمعاهدات والتعامل الدبلوماسى ، والقانون الدولى . يشير المؤلفون الى أن المفهوم له لحظات نجاحه ولحظات فشله الواضحة فى تسوية الصراعات الدولية ، ويسردون أسباب ذلك النجاح وذلك الفشل فيما يلى :

١ — **أهم مزايا هذا النوع أنه يحافظ على بعد كاف بين أطراف يحتمل أن يدخلوا فى صراع . ومن شأن هذا البعد ان يسمح لهؤلاء الأطراف بالتحكم فى قيام صراع بينها الى حد ما .**

٢ — يمكن كذلك النظر الى مفهوم الدول ذات السيادة فى ضوء نموذج التفاعل الفكرى الذى نعرض له هنا ، وأعنى : انه يزود كل

اطراف الموقف بصـــورة منوالية او شبه متقاربة عن ذواتهم : فالبلاد دول ، والأشخاص مواطنون .

٢ ــ على انه عند هـــذه النقطة يبدو مرة اخرى احد اوجه القصـــور فى هذا المفهوم بشكل واضح : فمفهوم « الدولة الشرعية » ليس واحـــدا فى كل الثقافات .

ثانيا : الثقافة المشتركـــة :

ومن الواضح أن تحقيق هـــذا النمط أصعب منالا ، ولكنه يصبح اذا تحقق أكبر فاعلية واقوى تأثيرا كعامل وسيط . وهو يمكن أن يتحقق مـــن خلال الاتصـــال الثقافى وما يترتب عليه من التقارب الثقافى مع اخذنا فى الاعتبار ان هذه العملية تتم ببطء ، وتتعرض لمعوقات عديدة بطبيعة الحال .

ومن الواضح أن تحقيق هذه الوحدة فى الهوية الثقافية يمكن أن يقضى تماما على الصراع الناشىء عن الاختلافات فى الفهم (وليس تلك الناجمة عن تعارض المصالح) .

ويشير المؤلفون الى نقطة هامة فى هذا الصـــدد مؤداها انه كلمـــا ازدادت درجـــة هـــذا التقارب الثقافى كلما زاد احتمال تفتت المجتمع الى جماعات متنافرة . فالاشتراك فى ثقافة واحـــدة هو الذى يتيح للفرد أن يفكر فى نفسه باعتباره يؤدى دورا اجتماعيا معينا ، وليس باعتباره ابن امـــة معينة . ومن شأن هـــذا التفتت أن يؤدى الى ظهور مزيد مـــن صراعات المصالح بين ابناء الثقافة الواحدة . على أن زيادة هـــذه الصراعات تكـــون مصحوبة فى نفس الوقت بظاهرة تميزها جميعا وهى قلة خطرها جميعـــا وتضاؤل شأنها على وجـــه العموم .

ولهذا الوضع تأثير خطر على الصراعات الدولية ، فحيث تكون درجة الوحـــدة عالية بين ابنـــاء الدولـــة الواحدة نجـــد ان الصراع سرعـــان ما يستنفر كل ابنـــاء الدولة بكل طاقاتهم للمشاركة . امـــا عندما تشرذم الدولة الى جماعات ويضطلع الفرد بعديد من الأدوار ، فان مشاركته فى اى صراع لا تكون عـــاده بنفس القـــوة ونفس الحـــدة .

ولكن من المؤكد ان الصراعات بين الدول ســـوف تخف حدتها (وقد حدث ذلك فعلا) بفضل الحاجـــة المشتركـــة الى الحفاظ على قيم ثقافية مشتركة . من هـــذا مثلا تغير أسلوب العمل العسكرى فى كثير من الحالات

من اجـل الحفاظ على بعض الأعمال الفنية . وهو امر لم يكن ممكنا دون وجود مستوى مشترك من القيم الطاوية . ومن شـأن تعدد مناطق التقاء المستويات القيمية هـذه ـ اى تكـون الثقافة المشتركة التى نتحدث عنها ـ أن تزداد نسبة المصالح المتقاربة بالمقارنة الى المصالح المتضاربة .

ثالثا : التقارب عن طريق المنظمات :

ويبدو هذا النوع من التقارب أوضح ما يكون فى الهيئات الدولية ، ويبدو فعالا بدرجة أكبر فى الحالات التى تكـون فيها تلك الهيئات ثنائيـة تجمع بين دولتين وتنسق بين جهودهما وتقرب بينهما . عندئذ يتحول أعضاء تلك الهيئات فى معظم الحالات من معبرين عن ايديولوجيتهم القوميـة الخاصة الى خبراء فى ايديولوجية البلد الآخـر ، او حتى الى الوقوف فى صف تلك الايديولوجية الأخرى التى يمكن أن تكون أكثر نفعا وأجدى فى تحقيق رسالة منظمة ثنائية معينة .

على أن هـذا لايعنى أن هؤلاء الأعضاء ينصبون انفسهم مدافعين عن أيديولوجية البلد الآخر . ذلك ان مهمهم لتلك الثقافة الأخرى لا يؤدى بهم الى استدماج internalization تلك الثقافـة والاهتداء بها . ولكن الأحرى انهم يعتبرون تلك الثقافة الأخرى شيئا يمكن التعامل معه وتوجيهه وجهـة معينة .

ويضرب المؤلفون مثالا على ذلك النوع من الانساق الوسيطية ببرامج تبادل الطلاب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

ونود أن نؤكد مرة اخرى أن هذا النوع الثالث من الأنساق الوسيطة يختلف عن النوعين الاول والثانى من حيث أنه لا يستهدف تحقيق تشـابه كامل فى الأنساق الفكرية ، ولا التوصل الى فلسفة واحدة فى الحياة ، وانما يهـدف الى صك فئة من كل من الطرفين تفهم اساليب الآخر وحياته .

ولنا على هذه الفكرة وعلى تطبيقها بعض الملاحظات نوردها ضمن ملاحظاتنا فى ختام المقال .

الفهم الفكرى للانسان :

وهنا ينزل المؤلفون بهذا التحليل من مستوى الثقافات أو القوميات الى مستوى الأفراد ، ليوضحوا لنا امكانيات قيام هـذا الفهم المعرفى بين

الأفراد . فيبدأون بتعريف الموضوع هنا ، وهو الفرد ، أو ذلك الى الجانب من الفرد المراد فهمه والاقتراب منه من جانب الأفراد الآخرين .

ويلجأون فى هـذا الصدد الى مفهوم « الشخصية الكلية » أو Total Persanality ويعرفونها بانها العالم الواقعى لذلك الفرد ؛ ومجموع ما يدين به من معتقدات وما يمارسه من عادات .

ويطلقـون على عناصر المعتقدات الاجرائية التى تتكون منها هـذه الشخصية الكلية اسم : محددات الشكل Form Givers أو الصـور Images ويفضلون استخـدام المصطلح الثانى بسبب شيوعه ، خاصة فى العلوم السياسية .

ونلاحظ هنا انه اذا ما حدث تداخـل وتقارب كامل بين الشخصيات الكلية لفردين او أكثر فانه لا يمكن أن يقـوم بينهم فى تلك الحالة أى صراع فكرى ، وانما أى صراع بينهما يمكن ان نعزوه الى تعارض المصالح ، ومن ثم يمكن أن نطبق عليه نموذج نظرية اللعب .

التفسير المعرفى للثقافات القومية :

ثم يرتفع بنا المؤلفون مرة أخـرى من مستوى الفرد الى مسـتوى الثقافـة ، فيقابلون بين الفرد والثقافة ، على اعتبار ان الثقافة القومية تقابل فى رايهم مـا عرفناه بالنسبة للفرد على انه الشخصية الكلية .

ولا يقدم المؤلفون جـديدا فى تعريف الثقافة بصفة عامـة ، حيث يتبنون التعريف السائد لـدى الانثروبولوجيين . كما لا يقدمون جـديدا فى تعريف الثقافة القومية ، سـوى اننا نفهم انهم يقصـدون بها ثقافـة مجتمع معين . ويشيرون الى حقيقة بديهية لدارس الثقافة وهى تأثير الثقافة الحاسم على القرارات الجمعية وخاصـة كلما تعاظمت القوة الاجرائيـة لفكرة من الافكار كلما زاد احتمال أن تصبح تلك الفكرة اسـاسا لاتخـاذ القرارات . ويشيرون بعـد ذلك الى العلاقـة بين النظم القائمـة وبين ثقافة المجتمع الذى تقوم فيه تلك النظم .

وينتهى المؤلفون الى انه لا يمكن الاستغناء عن استخدام نموذج التفاعل الفكرى فى تسـوية الصراعات بين المجتمعات أو الأمم الا اذا حدث انصهار بين تلك الثقافات المتصارعة . أما طالمـا انها لم تنصهر بعد ، أو حدثت بينها درجـة من التقارب الطفيف فان النموذج الـذى نحن بصدده يمكن أن يلعب دورا مفيدا فى تسوية الصراع .

نموذج التفاعل الفكرى :

يبدأ المؤلفون بالاشارة الى أهمية عنصر الفهم المتبادل بين الأطراف المتصارعة كعامل حاسم فى تسوية هـذا الصراع . ففى كثير من المفاوضات الدولية يمكن أن ينشـأ قدر كبير من الصراع نتيجـة سوء الفهم ، مما يترتب عليه رفض كل طرف للاتجاه الفكرى للطرف الآخر . وينتج عن هذا الموقف ان يسىء كل طرف الحكم على الآخر ويحجب عنه عنصر الاخلاص والثقـة المتبادلـة . لذلك يخلص المؤلفون الى نتيجـة هامـة مؤداها ان صراع الفهم غالبا ما يلون صراع المصالح وكثيرا ما يضخمه .

ويمكننا فى كل الحالات التى يحـدث فيها هذا ولا يكون هناك تجانس ثقافى بين الأطراف المتصارعة أن نميز بوضوح بين جانبين أساسيين للصراع: جانب صراع مصالح ، والآخر صراع معرفى (أو فكرى) . وقـد اتضح من قبل أن المواقف التى لايوجد فيها صراع فكرى ، والتى يمكن ارجـاع الصراع فيها الى تعارض أو تضارب ـ جزئى أو كلى ـ فى المصالح ، يمكن تحليلها ومعالجتها من خـلال نموذج نظرية اللعب .

ولكن المؤلفين يقررون هنا حقيقة هامـة فيما يتعلق بامكانية الانتفاع بنموذج التفاعل الفكرى فى تحليل وتسوية هـذا النوع من صراع الفهم . يقـول المؤلفون : « ولكى نقـدم تحليلات فى ضـوء النمـوذج المعرفى ، سنفترض افتراضا ثانيا مكملا للفرضية الأولى ، فنفترض أن المواقف الصراعية التى ينعـدم فيها عنصر الصراع على المصالح ، بحيث يمكن تحليل الصراع باكمله فى ضـوء نموذج التفاعل الفكرى » .

بعد ذلك ينتقل المؤلفون الى تحديد بعدين أساسيين من أبعاد نموذج التفاعل الفكرى ، يضم البعد الأول قطبين متميزين ، والبعد الثانى قطبين آخرين وهذين البعدين هما : ـ بعد النظرة الشمولية العامة فى مقابـل النظرية التفصيلية التى تنطلق من الحـالة الفردية :

Universal - oriented — Case - oriented.

والبعد الثانى : البعد الترابطى فى مقابل التجريدى

associative - abstractive diemension

البعد الأول

الثقافات ذات النظرة الشمولية :

وتؤكد هذه الثقافة على اهمية التبرير اللفظى . فالقوانين هنا تعبر عن مثل عليا ، أمـــا تنفيذها فيأتى فى المرتبة الثانية بعد محتواها المثالى هـــذا . كذلك تتميز هذه الثقافة بالتفكير الاستدلالى deductive ومـــن ثم تحتل الأفكار العامة والمثل العليا فى المرتبة الأولى وتمثل محور الارتكاز الأساسى ولذلك لا نجـــد هنا اهتماما كبيرا بالنزول الى مستوى التفاصيل الدقيقة .

ولا تميل هذه الثقافة الى الحلول الوسطى على أســـاس التسليم بنقاط غير مقبولة قد يفهم على انه تسامح فى التسليم بمبادىء ناســـدة . ولذلك تجـــد ابن مثل هذه الثقافة يتجنب فى المفاوضات الحلول الوسطى بأى شكل من الاشكال لأن قبول هذه الحلول الوسطى كما قلنا يعنى له ان منطلقه الأساسى كان خاطئا على نحو أو آخر .

الثقافات ذات النظرة التفصيلية :

تتميز مثل هذه الثقافة بتحديد مجـــال الرؤية أو تضيق نطاق الاطار المرجعى كلما أمكن ذلك . فالمعرفة التى قد تبدو فى بعض الثقافات شاملة وكلية ومتكاملة تعالج هنا عن طريق تقسيمها الى عدد كبير من الحالات أو القضايا الفردية المستقلة . ومن ثم لا تسعى هذه النظرية الى حل قضايا ومواقف كلية دفعة واحدة ، وانما يمكن ان تكتفى بحل مشكلات معينة تواجه الفرد ، فهذا الهدف يمكن أن يكون غاية كافية لتوجيه السلوك نحوها .

وتتميز هذه الثقافة أساسا بالتفكير الاستقرائى Inductive أو محاولة استخلاص الأحكام العامة من الحالات الفردية . ومن أمثلة هـــذا الاتجاه استخدام الاحصاءات كأساس لاتخاذ القرارات ، على خلاف اســـتخدام المبادىء لاثبات صحة وصواب قرارت متخذة سلفا ، كما هو الحال عند أبناء الثقافة السابق توصيفها .

ولذلك تجد المفاوض من أبناء هـــذ الثقافـــة ساعيا دائما نحـــو الحلول الوسطى واقتناص الامتيازات بقـــدر الامكان . وعندما يتم جدول أعمال المفاوضات عدة نقاط مختلفة ، تجده يميل الى أن ينظر الى كل نقطة

كحالـــة فردية مستقلة ، ويحـــاول مناقشتها مناقشة مستقلة عن النقاط الأخـــرى .

امريكا والاتحاد السوفيتى :

ثم يعمد المؤلفون بعد توصيف هذين النمطين من أنماط الادراك والفهم — وكما هو متوقع منذ البداية — الى المطابقة بين احدهما وبين الثقافة السوفيتية وبين الاخرى وبين الثقافة الامريكية ، وذلك من واقـــع سلوك وغدى المفاوضات فى مباحثات نزع السلاح السوفيتى الامريكى .

فالسوفيت هم أبناء الثقافة ذات النظرة الشمولية الكلية - universal oriented والامريكيون هم أبناء الثقافة ذات النظرة التفصيلية case - oriented

وبالرغم من أن المؤلفين يستدركون بعد ذلك قائلين — أن كلا الأسلوبين من أساليب الادراك والتفكير مرجود فى كلا الثقافتين (*) ، ولكن هذا الحكم قد اخذ فى اعتباره الطابع الغالب للادراك والتفكير ، ولايعنى أن النوع الآخر منعدم فى أى الثقافتين انعداما كليا . فبالنسبة للروس على حين نجـــد أن أسلوب التفكير والادراك عند علماء الرياضيات متقارب أو هو نفســـه أســـلوب التفكير عند علماء الرياضيات الامريكيين ، الا أن تلك النظرة الشمولية الكلية موجـــودة عنـــد الروس بشـــكل بارز — على خـــلاف الأمريكيين — فى مجالات السياسة ، والادارة ، والاقتصاد والتعبير اللغوى، وعلى العموم فى مجال العلاقات بين الأشخاص .

البعـــد الثانى

بعد التفكير الترابطى والتجريدى

ويمثل التفكير الترابطى والتجريدى البعد الثانى لنموذج التفاعـــل الفكرى . ويتميز أسلوب التفكير الترابطى Associative بميل الانســـان الى الاستجابة لبيئته بشكل مباشر ، غالبا ما يكون حدسيا ايضـــا . بينما يتميز التفكير التجريدى Abstractive بالتفكير المنظم القائم على الاستنتاج

(*) والا لمـــا وصلا الى هذا المستوى المتقارب من التقـــدم العلمى والتكنولوجى . انظر مناقشة هذه القضية فى فقرة النقد والتقييم .

من الوقائع أو المقدمات ، والمحاولات المنهجية المنظمة للتمييز بين ماهـــو متصل بالموضوع وما ليس متصلا به .

وتتمثل الاستجابة الترابطية أمـــا فى استجابة تتم وفقا للنمـــاذج المألوفة فى الاستجابة للمثيرات المألوفة (كما فى الأفعال الهادفة التى تتبع الملاحظة مباشرة) أو تتمثل فى كونها نتيجة تداعى الأفكار كما يتمثل فى السحر التعاطفى أو فى الأحـــلام .

أمـــا أسلوب التفكير التجريدى فنجده متمثلا فى العلوم الحديثة . فالنتائج تعتمد على الاستعانة بمناهج ذات قيمة وكفاءة مؤكدة . ويميز هذا النوع من أنواع الفكر تمييزا حادا دقيقا بين ما هو متصل بالموضوع ومالـيس متصلا ، أو بين « المعلومات » « والضوضاء » .

ويقوم المؤلفون علاوة على ذلك ببعض عمليات الربط بين أساليب التفكير الترابطى والتجريـــدى وبين النظرة الشمولية والنظرة التفصيلية فتتعدد بذلك أنواع التفكير وأبعادها المختلفة ، مما لا جدوى من الدخول هنا فى تفاصيله .

ولكن الذى يهمنى هنا حقيقة هو ربطهم بين هـــذه الأنواع من أنواع التفكير وبين أساليب بعض المناذج الطريفة ، التى لا نستطيع مـــع ذلك ان نسلم بها على علاتها .

العلاقات بين البلاد

ثم يقدم لنا المؤلفون تحليلا لموقف فرضى يضم دولتين : مثلا س ، ص ، وفى هـــذا الموقف تحاول الدولة « س » أن تنفذ برنامجا معينا لصالح الدولة « ص » . معنى هذا ان الموقف لا ينطوى على صراع فى المصالح .وبرغم تلك الحقيقة فقد نجد جزءا كبيرا من سكان الدولة « ص » يعتبرون سياسة الدولة « س » ضارة بأهم مصالحهم . ويحاول المؤلفون من خلال تحليل هذا الموقف فى ضوء نموذج التفاعل الفكرى القاء مزيد من الضوء والوضوح على مشكلات هذا الموقف .

فالدولة « ص » دولة متخلفة ، تقليدية الى حـــد كبير ، ولكنها تسعى مع ذلك الى تحديث نفسها . ونفترض فى نفس الوقت ان الدولة « س » ذات ثقافة متقدمة كفء . واذا تقصينا دوافع هذا السلوك (أى تنفيذ برنامج

التنمية المذكور) عند الدولة « س » ، وجدناه احساسا منها بأداء رسالة ، والاهتداء بحقائق ومبادىء عامة تؤمن بصحتها ، وبضرورة انتشارها بين كل الناس وكل الشعوب . ومن هنا يمكن أن تتخذ تلك الثقافة ذات الرسالة صورة عدوانية (بمعنى مجازى للكلمة) ، حيث ترى من واجبها ان تحدد لأبناء الثقافة الأضعف (ص) ما هو الصواب وما هو الحق لأجل مصلحتهم هم (*) . وينساب تأثيرها الثقافى على أبناء الثقافة الاضعف الاكثر تخلفا مخاطبا اياهم : « غيروا هويتكم ، حاولوا أن تصبحوا كشعب الدولة س » ؛ « حاولوا ان تفعلوا الأشياء المفيدة ، وتصبحوا اكفاء فى اعمالكم » ، « حاولو أن تتحركوا ، فان شعبكم سوف يفضل ثقافتى على ثقافتكم » . ويؤكد المؤلفون أن المزايا السياسية والاقتصادية المصاحبة لهذا العدوان الثقافى والمرتبطة به لا يمكن أن تحجب عن نظرنا النفور الذى يثيره ، والصراعات التى يمكن أن يفجرها .

ومن الطبيعى أن رد فعل الثقافة « ص » على هذه الدعوة يمكن أن يتخذ أشكالا متعددة ، بعضها ثقافى ، وبعضها سياسى .. الخ .

ولا شك أن تحديد ما اذا كانت العلاقات بين الدولتين «ص» و «س» سوف تصطبغ بطابع الصراع أو الاتفاق لا يمكن أن يتم بشكل يقينى الا من خلال التوصل الى مزيد من الدقة والأحكام على نموذج التفاعل الفكرى . وذلك عن طريق ملاحظة مزيد من الحالات الخاصة المحددة .

تحليل بعض الصراعات العالمية

القائمة فعلا

يتناول نموذج التفاعل الفكرى صور التباين المتطرفة فى الاتجاهات داخل كل جماعة بشرية وبالتالى داخل كل امة من الأمم . وربما توقعنا أن نجد ثمة صلة بين نوع الصراعات الموجودة بين الأمم — والتى يحددها النموذج المذكور — وبين نوع الصراعات الدولية القائمة فى نفس الوقت .

(*) غنى عن البيان أن محاولة اضفاء مثل هذه المسحة المثالية الخيرة على سلوك البلاد الاستعمارية المتقدمة لتبرير استغلالها للشعوب المقهورة لا تنطلى على أحد مهما البست من ثوب علمى .

وتوضيحا لهـذه القضية يحـاول ان يربط المؤلفون بين سياسـة عبد الناصر أو سوكارنو الخارجيـة وبين الأوضـاع الداخلية فى بلديهما آنذاك . فالاتجاهات التى اتخذتها بلداهما على مسرح السياسة الدولية توضح أن السياسة الخارجية كانت تستهدف فى الغالب — وان لم يكن دائما طبعا — توسيع وتدعيم تلك المناطق الواقعة خارج الحدود القومية التى تتفق اتجاهاتها السياسية والاجتماعية السائدة مع الاتجاهات السائدة فى الداخل .

ثم ينتقل المؤلفون بعد ذلك الى مناقشة سريعة كنا نتوقعها منذ بداية المقال للصراع العربى الاسرائيلى فى ضوء خطهم الفكرى الذى اتضحت معالمه بشكل كاف حتى الآن . ويقولون لو أن هـذا الصراع كان مجرد تضارب مصالح ، أى مجرد خسـارة جزء من أرض فلسطين (وهى دولة لم تكن قائمة اصلا انذاك !!) لأمكن حلها عن طريق تقديم تعويضات مناسبة فى صـور مساعدات اقتصادية قادرة على زيادة انتاجية الأرض بالقـدر الذى يعوض الجزء المفقود منها ، وكذلك فى صـورة ضمانات سياسية ضد العدوان الخارجى .

أم هـل هـذا الصراع عبارة عن صراع فى الفهم راجـع الى زرع دولة ذات ثقافة تجريدية (متقدمـة) وسط منطقـة ذات ثقافة ترابطية (متخلفة حسب التعريفات السابقة) ، وان أساليب معيشـة هـذه الدولة الجديدة يهـدد الفهم الترابطى (المتخلف) لمعنى المشروعية وللاحسـاس بالهويـة ؟ .

ويخلص المؤلفون الى أن تسوية الصراع تصبح أمرا اكثر صعوبة فى الحالة الأخيرة . فالواقع انه لا يمكن التوصل الى حل دائم سريع ، سواء كان هذا اختفاء اسرائيل من الوجود تماما أو استيعاب اللاجئين الفلسطينيين فى العرب تماما .

ثم يستطرد المؤلفون فى تحليل نمط هذا الصراع باعتباره تضاربا فى الفهم وليس صراع مصالح . ويصلون الى أن أسـاليب تسوية الصراع تختلف بطبيعة الحال تبعا لنتيجة التحليل الذى يتم التوصل اليـه بصـدد هـذا الصراع فالصراع على المصالح يتطلب لتسويته مجرد تعديل اتجاهات الطرفين ازاء بعضهما البعض . أما صراع الفهم فيتطلب حدوث تحولات فى طبيعة الأطراف نفسها .

تسوية صراع الفهم فى ضوء الانساق الوسيطة السابق تحديدها

فكيف يمكن اذن الاستعانة بنموذج التفاعل الفكرى فى تسوية الصراعات الدولية من خلال تلك الأنساق الوسيطة السابق تحديدها ؟

يتطلب **النسق الوسيط الأول** ـ وهو الدول ذات السيادة ـ تحقق نوع من التماثل المعرفى Cognitive Symmetry . ووجه القصور فى هذا الحل هو درجة تحقيق هذا المطلب تحقيقا كاملا .

اما **النسق الوسيط الثانى** ـ وهو خلق ثقافة واحدة بين الأطراف المتصارعة ـ فيهدف فى مرحلته النهائية الى خلق تماثل حقيقى بين ثقافات الأطراف المتصارعة . على أننا نجد فى الواقع العملى أن هذه العملية قد تميزت بتدفق المعلومات فى اتجاه واحد بصفة عامة ، اى دون حدوث تبادل فى المعلومات بين كلا الطرفين ، او بين الأطراف المتصارعة . كما أن التطور من امم تقليدية الى ثقافة موحدة عملية بطيئة كل البطء . بل أن عملية التغيير الثقافى نفسها يمكن أن تؤدى كما راينا الى اثارة صراعات خطيرة ، واثارة احقاد بين الثقافات .. الخ .

ولذلك تصبح المشكلة هى تحقيق قدر من التوازن بين الرغبة فى تحقيق ثقافة موحدة وبين الرغبة فى القضاء على الصراعات الفكرية . ولعل ادراكنا ان تلك هى طبيعة اخطر المشكلات التى تواجه الجهود الرامية الى خلق نظام دولى موحد اليوم ، لعل اراكنا ذلك يمثل احد الاسهامات الهامة التى يمكن أن يقدمها الينا نموذج التفاعل الفكرى .

ومن النقاط التى ينبه اليها المؤلفون هنا أن الأمم ذات الثقافات المتقاربة تكون أكثر وعيا بمجالات التقاء المصالح بينها واسرع فى ادراك ذلك من البلاد ذات الثقافات المتباعدة . ولذلك يجب علينا توصيل الأعمال الرامية الى خدمة المصالح المشتركة والتى تبذلها الثقافات الأكثر تقدما توصيلا دقيقا وبعناية فائقة الى الثقافات الأدنى . والا اعتبرت تلك البرامج عاملا فى تدعيم المصالح المتناقرة . ومن ثم نظرت اليها تلك الثقافات الأقل تقدما على أنها أعمال عدوانية .

أما فيما يتعلق **بالنسق الوسيط الثالث** ـ وهو المنظمات الدولية المتخصصة ـ فيقوم على خلاف النسقين الأول والثانى على التسليم بوجود عدم تجانس فكرى . فيلعب ممثلو البلد « أ » دور الخبراء فى أمور البلد « ب » والعكس بالعكس . ومثل هذا النظام يتيح تدفق المعلومات بين البلدين فى كلا الاتجاهين ، أى من الثقافة الأرقى الى الثقافة الأدنى والعكس . ومن ثم تكون تلك المنظمات بمثابة « فرملة » للعدوانية الثقافية من جانب الثقافة الأرقى والعدوانية السياسية من جانب الثقافة الأدنى .

خلاصة المؤلفين

ثم يناقش المؤلفون على عجل فاعلية كل من هذه الأنساق الثلاثة فى تسوية صراعات الفهم او الصراعات الفكرية . فيلاحظون ان النسق الاول ـ أى الدول ذات السيادة ـ يتجاهل هذا التباين الموجود فى الانساق الفكرية ، مما يوضح قلة جدواه فى تحليل الصراع العربى الاسرائيلى . أما النسق الثانى فيميل الى ترجيح كفة الثقافات الراقية ازاء الثقافات الأدنى مما يجعله أداة غير صالحة فى الوقت الراهن . ومن ثم يبقى النسق الثالث ـ المنظمات الدولية المتخصصة ـ كأداة معيدة فى هذا الموقف . ومن ثم يجب التأكيد على أهمية وفاعلية تكوين « نسق من الأبنية الثالثة » ، أى توسيع نطاق المنطقة المشتركة ، « أى ما نسميه اليوم سياسة اقامة الجسور « وزيادة نقط الالتقاء » .. الخ فمن شأن هذه الجسور ونقط الالتقاء أن تضعف الضغوط الصادرة من الداخل والرامية الى تسخين هذا الصراع .

ويضرب المؤلفون بعض الأمثلة لمثل هذه الأجهزة التى يمكن أن تقوم على المستويين الرسمى وغير الرسمى . ومنها : التبادل التجارى ، وتبادل رؤوس الأموال ، تبادل وسائل الاتصال ، التبادل الاعلامى والعلمى ، وما الى ذلك من الجسور .

نقد وتقييم

المؤلفون :

نادرة تلك المقالات العلمية التى يحتشد لكتابتها مثل هذا العدد الكبير الذى اجتمع لهذا المقال الذى عرضنا له . فقد اشترك فى تأليفه

أدمون جلين E. glenn من جامعة دالاوار Delawae وروبرت جونسون R. Johnson من جامعة كولجيت Colgate وباول كيمل P. Kimmel من معهد بحوث التربية والتدريب التابع للجامعة الأمريكية ، وأخيرا بريانت ويدج B. Wedge بمعهد القانون والديبلوماسية (التابع لجامعة تفتس Tufts) .

وقد سبق للمؤلفين الأربعة اخراج اكثر من دراسة متصلة بالموضوع الذى يدور حوله المقال . ويمكن للقارىء الرجوع الى قائمة مراجع المقال للاستزادة من تلك الدراسات . ولكن اهمية هذه الحقيقة بالنسبة لنا هنا أن تلك ليست المرة الأولى التى يتصدى فيها المؤلفون لمعالجة هذا الموضوع الصعب ، وانما مقالنا هذا هو فى الحقيقة بمثابة خلاصة تتجمع فيها نتائج بحوث المؤلفين الأربعة ، وجماع خبراتهم النظرية والعلمية (بحكم أوضاع بعضهم فى مراكز البحوث والمعاهد المتخصصة) .

هل الصراع الثقافى فقط ؟:

يحدد المقال الذى نعرض له الموضوع على نحو دقيق . فهو لا يتناول الصراع الثقافى بكافة اشكاله ، ولكنه يقتصر على ذلك النوع من الصراع الثقافى المرتبط بالعلاقات الدولية على نحو أو آخر . ذلك أن هناك أنواعا أخرى من الصراع الثقافى التى يمكن أن تثور بين أبناء ثقافات مختلفة متعارضة أو متصارعة ، ولكن هذا الصراع يتم داخل اطار دولة واحدة ، أو كيان سياسى واحد ، وبالتالى لا يكون له انعكاس على العلاقات الدولية . وهذا النوع من الصراعات الثقافية وغيره — رغم أهميته — لا يدخل فى موضوع هذا المقال . ومن هذه الصراعات الثقافية مثلا ذلك الصراع الثقافى بين بعض القوميات فى يوغوسلافيا أو فى الاتحاد السوفيتى ، أو غيرهما من الدول والذى لا يندرج تحت موضوع المقال .

ورغم سعادتنا بالتخصص واحترامنا لهذا التدقيق فى النظر الى موضوع البحث الا أن مثل هذا التأكيد على الجانب الثقافى بهذا الشكل يمكن أن يخفى عن نظر الباحث — خاصة عديم الخبرة المباشرة بأحد موضوعات الصراع الدولى — الجوانب الاقتصادية والسياسية للصراعات الدولية . وبعض هذه الجوانب الاقتصادية والسياسية لا يرجع الى عوامل ثقافية مباشرة ، اى أنه ليس « صراع فهم » أو « تضاربا فى أساليب التفكير» انشئنا استخدام لغة المؤلفين . لذلك يجب الانتباه الى ان هذا النوع

لا يمثل سوى شريحة ضئيلة من الصراعات الدولية الراهنة ، أو جانبا واحدا من جوانب طائفة أوسع من الصراعات الدولية .

وقد انتبه المؤلفون أنفسهم الى خطورة هذا التحديد . فقد لاحظوا انه لا يمكن تطبيق نموذج التفاعل الفكرى بنجاح وفاعلية الا فى الحالات التى ينعدم فيها صراع المصالح تماما ، ويكون الصراع خلافا فى الفهم أو تضاربا فى أساليب التفكير فقط . ومن الواضح أن هذا الحكم المحدد القاطع من جانب المؤلفين يحدد لنا فى نفس الوقت أهمية وجدوى تطبيق هذا النموذج أو الانتفاع به فى تحليل الصراع العربى الاسرائيلى الذى أعتبره صراعا فى المصالح بالدرجة الأولى ، ثم يجوز اعتباره صراعا ثقافيا بعد ذلك . خاصة وأن الغربيين عموما يتصورون أن اعترافنا باسرائيل وتعاملنا معها معاملة الند للند سيكون فى صالح الفريقين (ازدهار الصناعة والتجارة ، واستصلاح الأراضى البور واستزراع الصحراء واستثمار ثرواتها .. الخ) وأن المشكلة هى مجرد مشكلة فكرية أو أزمة فهم من جانب العرب ، ولذلك يتركز كل اهتمامهم وأمثلتهم على تسوية هذا الخلاف الفكرى (أو المعرفى) .

تلك نقطة خلاف أساسية مع المؤلفين أردنا أن نحددها بشكل واضح فى بداية هذا النقد ، وهو خلاف ذو شقين : الشق الأول صعوبة أن يكون الصراع — فى أى حالة من الحالات — صراعا ثقافيا خالصا ، أو على الأقل بالنسبة للصراعات الدولية البارزة . الشق الثانى خطورة تبسيط الصراع العربى الاسرائيلى بجعله صراعا ثقافيا فقط ، فهو بالدرجة الاولى صراع اقتصادى (أى صراع مصالح) سياسى ثقافى بعد ذلك .

نظرة تقييمية الى الأنساق الوسيطة

على أن هذا الخلاف الرئيسى مع المؤلفين لا يمنعنا مع ذلك ان نناقش بشىء من الصبر أبرز النتائج التى خلصوا اليها . ولعل تلك الأنساق الوسيطة الثلاثة هى أبرز ما توصلوا اليه كأدوات لتسوية صراع الفهم أو التضارب فى أساليب التفسير بين الدول المتصارعة .

النمط الوسيط الأول :

وهو ما يسمونه الدول ذات السيادة ، اذ لا شك أن فكرة كل دولة عن الدول الأخرى الداخلة معها فى صراع على انها دولة ذات سيادة كفيل بفرض

بعض الضوابط على سلوك كل منها ازاء الأخرى ، وباتاحة بعض فرص تسوية الصراع اذا نشب .

النسق الوسيط الثاني :

ويستهدف هذا النسق خلق ثقافة مشتركة بين الأطراف المتصارعة ، فمن شأن هذا الاقتراب الثقافى أن تخف ضغوط الصراع من الداخل ، وتقل نقاط الاختلاف ، وتكثر نقاط الالتقاء . وهى دعوة ظاهرها حق ، وباطنها باطل وفاسد كل الفساد . ذلك أن الدعوة الى تسوية الخلافات القائمة فى أساليب التفكير والادراك تنطوى على مغالطة خطيرة . فاذا كان هناك شعب متقدم ومتطور (بالتالى اكثر قوة واكثر كفاءة) يطالب شعبا آخر (اقل تقدما وكفاءة) بأن يتبنى أسلوبه الكفء فى التفكير والادراك ، فهى دعوة استعمارية صريحة ومدمرة .

حقيقة أن الدعوة الى تبنى اسلوب متقدم أمر طيب ومشروع ، ولكن هذه الاستعارة الفكرية لا تتم هكذا على المستوى النظرى والتجريدى فقط . أى أن الشعب الأضعف لن يستعير من الشعب الأقوى قوالب نظرية ومخططات فكرية مجردة ، وانما هو يستعير اساليبا وطرائق فى العمل والسلوك . فالفكر يتجسد دائما فى سلوك . وهنا يظهر لنا الجانب الفاسد فى تلك الدعوة . فانا اطالب الشعب الأضعف بان يلغى هويته وان يتبنى أساليب وسلوك الشعب الأقوى ، اى اطالب بان أجعل من هذا الشعب الأضعف صورة من الشعب الأقوى وذيلا من ذيوله وهذا بالتحديد هو غاية النمط الجديد العصرى والذكى من انماط الاستعمار الغربى ، والأمريكى بصفة خاصة ، الا وهو استعمار الناس من داخلهم استعمار عقولهم وأذواقهم .

والمؤسف انه حتى لو اجزنا هذه الدعوة الى تبنى أساليب الشعب الأقوى تبنيا كاملا فاننا نجد ان ذلك لا يتحقق فى الواقع العملى حتى لو أردناه . لأن الشعب الأضعف سيعمد ـ كما تدلنا الشواهد الواقعية العربية ـ الى استعارة الجوانب الظاهرية والمغرية والخلابة (اللبان والكوكاكولا ، والبنطلونات الضيقة ، والشعور الطويلة .. الخ) مهملا الجوانب الايجابية حيث لا تسمح له موارده وظروف البناء الاقتصادى بتقليد الثقافة الأمريكية واستيحاء النموذج الرأسمالى فى التنمية ، استيحاء كاملا .

ونحن لم نقم هـذا الاستنتاج من عندنا ، ولم نتوهم أن المؤلفين يطالبون كل الشعوب المختلفة بتقليد الثقافة الأمريكية . فهم يصورون أساليب الادراك والتفكير السائدة فى الثقافة السوفيتية (الشيوعية) بصورة مختلفة مكروهة . على حين يصورون الثقافة الامريكية على العكس من ذلك تماما . يصورونها بصورة محببة مرغوبة يجب أن تنشدها جميع الشعوب الفقيرة والمتخلفة والمقهورة .

النسق الوسيط الثالث :

وهو المنظمات الدولية المشتركة بين الأطراف المتصارعة . وهو أقل الأساليب الثلاثة تدخلا فى شئون الطرف الآخر مباشرة ، وأكثرها جميعا مراعاة لهوية كل طرف من الأطراف . وهى فى نفس الوقت الوسيلة التى يخلص المؤلفون الى أنها أكثر الوسائل جدوى وفاعلية فى الوقت الراهن لتسوية الصراعات الدولية .

ولا يخفى أنهم يقيسون فاعليتها وعينهم على الصراع الأمريكى السوفيتى والصراع العربى الاسرائيلى فى نفس الوقت .

والواقع أنه لا يمكن الا لمكابر أن ينكر قيمة هذه الوسيلة رفضا كليا . فنحن نقبلها ولكن بتحفظات هامة . فنقول انها فعالة وناجعة فى حالة الدول المتكافئة فقط ، واعنى هنا التكافؤ فى مستوى التقدم العلمى والفنى بوجه خاص . أما اذا تعددت هذه المؤسسات المشتركة بين دول غير متكافئة — كما هو الحال بالنسبة لأمريكا ، ودول أمريكا اللاتينية — فانها لا تؤدى الى مايذهب اليه المؤلفون . بل على العكس تؤدى الى جعل أعضاء تلك المنظمات من الثقافة الأضعف مدافعين عن الثقافة الأقوى أمام مجتمعهم ، بل وعملاء لها فى نهاية الأمر .

وواضح لنا أن المثال الذى ضربه لنا المؤلفون مضلل فبرنامج تبادل الطلاب الأمريكى السوفيتى مختلف بالطبع عن تبادل الطلاب بين أمريكا وأوغنده أو امريكا وبيرو مثلا . ذلك أن النتيجة مختلفة دون شك .

ملاحظات عامة :

حاولنا أن تتركز ملاحظاتنا على مناقشة جدوى المخطط الفكرى الذى يقدمه المؤلفون بالنظر الى الصراع العربى الاسرائيلى ، وهو ما نعتقده الدافع الأصلى وراء لاهتمام بعرض مقال كهذا .

ولكن هـــذا الاهتمام الخاص لا يمنعنا من ان نبدى بعض الملاحظات العامـــة على فكر المؤلفين واتجاههم الفكرى ، وهو امر وان بدا بعيدا عن قضية الصراع العربى الاسرئيلى الا انه متصل فى نهاية الأمر بالقضية بشكل غير مباشر .

أول تلك الملاحظات نظرة تنم عن نوع من التعصب للثقافة القومية او « التمركز نحو السلالـــة » Ethnocenteism (*) فالمؤلفون يميزون باسهاب بين الثقافـــة ذات النظرة الكلية التسوية ، وتلك ذات النظـــرة التفصيلية التى تنظر الى كل نقطة كحالـــة مستقلة . ونحن نستنتج مـــن عرضهم أن النظرة الأولى متخلفة غير عصرية ، والثانية متقدمة وعصرية . ثم نجدهم يطابقون بين الثقافة السوفيتية والنظرة الأولى ، وبين الثقافـــة الأمريكية والنظرة الثانية . فهذه المطابقة تنم فى رأينا عن انتقاص واضح من مكانة الاتحاد السوفيتى ، بل وعن سخرية به وتهجم عليه . وفى نفس الوقت تشير الى تمجيد صريح للثقافـــة الأمريكية ، وتعصب صارخ مـــن جانب المؤلفين .

فالخلفية الأساسية للمؤلفين اذن تمجيد للثقافة الأمريكية . ثم نلحظ بعد ذلك ـــ وترتيبا على النظرة السابقة ـــ تمجيدا للاستعمار العالمى .

فالمؤلفون يقررون صراحة (انظر ص ٤٤ من المقال) ان حكومات البلاد ذات الثقافة التجريدية والنظرة التفصيلية (اى الراقية المتقدمة) تد لاتكون عدوانية من الناحية السياسية والعسكرية . وهـــو امر تكذبه كل وقائع تاريخ الاستعمار فى العالم .

ويكفى ان نقرر فى ختام مناقشتنا أن هذه الخلفية الأمريكية والاستعمارية هى منطلق المؤلفين الذى تصدر عنه معالجتهم لموضوعنا المحـــدد « الصراع الثقافى » وما أحوجنا دائما الى أن نضع كل نبضة من نبضات الفكر الانسانى ـــ مهما بدت موضوعيتها وعلميتها ـــ فى اطارها السياسى والفكرى الأعم حتى نكون أكثر قـــدرة على فهم دوافعه ومراميه القريبة والبعيدة عـــلى الســـواء .

(*) قارن قاموس مصطلحات الانثولوجيا والفولكلور ، ترجمة محمد الجوهرى وحسن الشـــامى ، القاهرة ١٩٧٢ مـــادة : « التمركز حـــول السلالة » .